أضواء على كتاب "الطريق من هنا"

لفضيلة الشيخ محمد الغزالى

العالم الإسلامي يحسن أن يكون ذلك الكتاب في صفحة جديدة اليوم يعيش مرحلة التخلف الذي أطمع الأقوياء فيه، بل ألصق بالإسلام تهما كثيرة إلى جانب أن عقائد خرافية فكرت في إقصائه ووضع اليد على أتباعه – وقد نهض كثيرون من المسلمين لمعالجة هذا الانحدار، وإزاحة العوائق التي تمنع التجاوب بين الأمة وبين دينها وإزالة الأسباب التي جعلت الأمة الإسلامية التي كانت طليعة العالم كله ألف عام تتراجع هائمة على وجهها وأصبحت في مؤخرة القافلة البشرية.

ولذلك ألف شيخنا رحمه الله تعالى هذا الكتاب ليبين الطريق القويم الذي يجعل المسلمين يسيرون عليه حتي ينقذوا أنفسهم وينقذوا دينهم وينقذوا البشرية كلها.

وقد طلب من بغاة الخير أن يختلطوا بالجماهير ليرفعوا مستواها ويفكوا قيودها النفسية والفكرية، سواء كانت قيوداً موروثة أو قيوداً أقبلت مع الاستعمار الأوروبي الحديث والإسلام اليوم يعاني من أمرين:

الأول: التصور المشوش الذي يخلط بين الأصول وبين الفروع، وبين التعاليم المعصومة والتطبيقات التي تحتمل الخطأ والصواب، وقد يتبنى الفرد المسلم أحكاماً وهمية ويدافع عنها دفاعه عن الوحي ذاته.

الثاني: الجماعات المتربصة التي تقف بعيداً دون عمل تنتظر لأعداء الله الويل والثبور وعظائم الأمور – وهي في ميدان الدعوة الإسلامية بطالة مقنعة.

الاستعمار في إفريقيا:

لقد مكن الاستعمار في إفريقيا لنفسه ووفر الضمانات لبقائه، وإن جلت جنوده عن الأرض، لقد فرض أولا لغته وجعلها لغة المكاتبات في الدواوين ولغة الدراسة في جميع المراحل التعليمية ولغة التخويف في البيوت والشوارع، وحارب اللغة العربية وأخرجها عن عمد وأصبحت لغة القرآن الكريم لغة مهملة، بل إنها أصبحت لغة منبوذة وبذلك أصبح المسلم محجوباً عن التراث الإسلامي، لأنه مدون باللغة العربية وإذا قرأ عنه فإنه يقرأ ما كتبه المستشرقون والمبشرون وإلى جانب ذلك قامت حركة اقتصادية بارعة جعلت الإنتاج صناعياً أو زراعياً في أيدي الأجانب أو في أيدي العناصر الموالية لهم، وأصبح الرغيف الذي يأكلونه والثوب الذي يرتدونه والمرافق التي يستخدمونها في يد أولئك المستعمرين المهرة، وأن البعد عنهم هو طريق الضياع، ومشى التبشير الصليبي في ركاب الاستعمار يريد أن يضرب الإسلام الضربة المميتة، ومما يساعد على ذلك أن الثقافة

الإسلامية في اضمحلال، وأن الجماهير تعاني من الجهل والفقر والتقاليد السائدة ما أنزل الله بها من سلطان، ويلاحظ أن عدداً كبيراً من الدعاة الإسلاميين لم يدرسوا الميدان الذي توجهوا إليه ولا الجحود التي تنطلق منها الأفاعي.

والاستعمار الصليبي جاء إلى أقطار إسلامية دون قتال، لأنه كان شديد الوثوق من أن هذه الأقطار ستظل ذيولاً له تستمد منه وتعتمد عليه في كل شيء في حياتها، والمسلمون فقدوا الوعي، ولذلك فإنهم نائمون لا يدرون ماذا يراد بهم ولا ماذا يراد منهم، بينما الأمريكيون مثلاً أعلنوا حالة الطوارئ لأنهم اكتشفوا أن الاتحاد السوفيتي قد سبقهم في بعض الميادين وصدر الأمر بإعادة النظر في برامج التعليم كلها، وانشغلت الأمة كلها بهذه الكارثة وفي مدة قصيرة حققوا ما أرادوا، وهكذا نرى أن الشعور بحدة المنافسة ووجوب السبق يوصل الإنسان إلى تحقيق الهدف الذي يريده، ويلاحظ أن الأمريكيين قتلوا نصف مليون ياباني لإثبات وجودهم ورصدوا قناطير مقنطرة من الذهب لنشر الصليبية ومثلها لدعاوى اليهود وهكذا نلاحظ أنهم عادوا الإسلام بغير وعي ولا فهم للأمور، ونحن لا يمكن أن نفعل مثلهم، لأننا نلتزم بأمور ديننا وقيم إسلامنا ولكن الله سبحانه وتعالى لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم، ولابد من أن نغير ما بأنفسنا حتي يغير الله ما بنا.

أوليس مما يلفت النظر أن طلاب العلم في مدارسنا وجامعاتنا لا يهمهم إلى النجاح في الامتحان، ولو كان عن طريق الغش، وأن المتفوقين علمياً من أبناء المسلمين يسارعون إلى الهجرة إلى أوربوا مؤجرين علمهم لمن يقدره مادياً وأدبياً.

ترى هل من الممكن أن يكون لنا مستقبل إيجابي ونحن في حالة استرخاء تام، استرخاء فكري واسترخاء خلقي يسود حياتنا؟

وعمل الصالحات عنصر أساسي في الإسلام وفي سورة القصص شرح لأحوال الاستبداد السياسي والطغيان الاقتصادي في قصتي فرعون وقارون، ثم ساق هذا القانون الحضاري العام: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} "القصص 83".

إن عناصر العدل السياسي والعدل الاجتماعي من صميم الأعمال الصالحة التي تنداح الدنيا لتشمل الدنيا كلها وحرية الحركة فيها مطلقة، ويلاحظ أن العبادات البدنية تؤدي خلال غيبوبة عقلية كالقراءة بلا وعى والركوع بلا خشوع لا فائدة منها وعندما تنحط العبادات إلى هذا المستوى فإن أعمالاً مدنية أخرى تشتد فيها حرارة الإخلاص ويتألق فيها حسن القصد تكون أرجح عند الله تعالى، وأجدى على الحياة من تلك العبادات.

إن المسلم مكلف بإصلاح كل عمل وعمل كل صالح، وهذا الانشطار المعيب في السلوك البشري ما هو إلى مرض طرأ على الأمة

الإسلامية بسبب انحراف القرون الماضية وليس ذلك إلا ابتعادا عن منهج الإسلام والله تعالى يوضح ذلك في قوله { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} "النحل 97".

إن أول ما أصاب النفس الإنسانية من عطب توهمها أن الصالحات ما هي إلا العبادات المروية، ونسي الإنسان أن ميدان الأعمال الصالحة يستوعب حركاته وسكناته كلها ويحولها إلى قوى تدعم الخير، لأن الصلاح تغيير نفسي وتغيير عاطفي وتغيير سلوكي في سائر شئون الحياة، وذلك يجعل الإنسان يسير في طريق الكمال والرغبة في الإحسان، وبذلك يسلم الإنسان وجهه لله رب العالمين ويكون مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها.

إن الشلل الذي أصاب أيدي المؤمنين في ساحات الإنتاج، وجعل الناس يأخذون منهم ولا يعطونهم شيئاً وجعلهم يتأخرون بينما يتقدم غيرهم وكان ذلك سببا يحط قدرهم بل حط دينهم معهم.

لماذا جفت ينابيع العلم؟

ترى ما كانة الحسن بن الهيثم في تاريخنا؟ وما مكانة جابر بن حيان والخوارزمي؟

إن الراسخين في العلم ينسحبون من الحياة كما جاءوها على استحياء والله - سبحانه وتعالى - جعل معرفته والحفاظ على حقوقه

مربوطين بدراسة الكون والتمكن فيه، والقرآن الكريم عرفنا بالله تعالى عرض علينا ملكوته، ولفتنا إلى أرضه وسمائه وجعل رسالتنا في نطاقه.

إن المخ البشري يزن كيلو جراماً وربعاً – وبه عشرة مليارات من الخلايا ولكل خلية غذاؤها وأجزاوها ونماؤها أو فناؤها. ترى من القائم على إيجاد وإمداد كل خلية من الخلايا بما تحتاج إليه؟ ومن الذي يوجهها لأداء وظيفتها الدقيقة؟

إن العقل الإسلامي لو التزم الخط القرآني المشغول بالملاحظة والتجارب المهتم بالتنقيب عن الحقائق والجوب في آفاق الأرض والسماء لكان له شأن آخر.

والعزلة الفكرية عن الكون ما هي إلا انحراف عن الخط الإسلامي وفرار من تكاليف اليقظة الذهنية التي فرضها علينا القرآن الكريم، بل إنها قد تكون طريق العجز عن مقاومة الباطل ومؤازرة الحق.

والعلم الذي فقدناه هو الذي فقده الجزائريون حين هبطت محاصيل الحبوب بعد الاستقلال، وهو الذي فقده المسلمون حين صارت على أعينهم غشاوة جعلتهم لا يحسون بما حولهم، وقد حرص الغرب على أن يظل هذا العلم منقولاً لا معقولاً، مجلوباً لا أصيلا حتى يظل المسلمون فقراء إليهم أبداً والصحوة الإسلامية في العصر الحاضر تحتاج إلى العلم الذي يحكم العلاقة بالقرآن الكريم، وتنتقل المحدود إلى الأرض والسماء وينير الأرض ويعمرها عمارة تحقق وظيفته على هذه الأرض.

تجربة يابانية:

لقد تفوق اليابانيون في كثير من ألوان العلم والعمل واستطاعوا أن يخطو خطوات واسعة في تحقيق أهدافهم الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وقد قرر الأمريكيون أن يضعوا أيديهم على الخبرة اليابانية في عالم إلكترونيات، وأن يوجهوا النشاط الياباني إلى إنتاج أجهزة الإعلام السمعية والبصرية لتباع بأرخص الأسعار ويحتكروا ما عدا ذلك.

وفطن اليابانيون لذلك فقرروا نقل هذه الصناعة الرفيعة من طور الاستهلاك العادي إلى طور آخر أرقى، وأن يحكموا قبضتهم القوية على هذه العلوم، ونجحت الخطة اليابانية التي أحاطوها بالعلوم والعمل وفشل الأمريكيون وأصبحوا متخلفين في هذا الميدان.

ويقظة العالم الإسلامي تتبدد قواها في الصراع الداخلي وحكومات كثيرة تريد نظاماً علمانياً وترفض استدامة الفكر الإسلامي، ووقفت الأمة الإسلامية المسكينة بين من يمقتون الإسلام ويحاربونه وبين إسلاميين يخلطون الوحي بالخرافة والجد بالهزل، وما يلفت النظر أن اليابانيين لم يخاصموا دينهم ووجهوا قدراتهم كلها لكسب معركة الحياة فكسبوها، أو ليس مما يلفت النظر أن لغتنا العربية وهي لغة القرآن الكريم تكاد تكون خالية من علوم الطب والصيدلة والأحياء؟!

أوليس من العجب أيضاً أن نزاهة الانتخابات نراها في الهند وفي أوروبا وفي أمريكا ولا نجدها في البلاد الإسلامية؟

والاستعمار الصليبي نجح في زرع البغض للإسلام وأهله وجعل القومية الهندية تنظر إلى الإسلام على أنه دين فاتح مستعمر غريب، إن 3% من مسلمي العالم يعيشون في القارة الهندية وأحوالهم تجعل الإنسان يشعر بالأسي والحزن لكثرة المآسي التي تحيط بهم في كل أنحاء الهند بما فيها باكستان وبنجلاديش.

قضية الأخلاق:

إن المسلمين مصابون بشلل عضوي في أجهزة الخلقية، وملكات أفراده النفسية تعوقه عن الحركة الصحيحة، وأن المجتمعات الإسلامية تشبه أحياء انقطاع عنها التيار الكهربي فأصبحت غارقة في الظلام. ولذلك فإن لابد من إزالة أسباب الخلل وإعادة الأوضاع إلى أسسها السليمة وإلى فطرة الله التي فطر الناس عليها، والمسلمون الأوائل كانوا نماذج أخلاقية تجسد فيها الشرف والصدق والطهر والتجرد، فتصدروا القافلة البشرية واليوم أصبح العالم الإسلامي يجري وراء الشعوب الأخرى دون أن يصل إلى مستواها، لأن الأخلاق ضعفت والأخلاق مجموعات متنوعة من الفضائل والتقاليد تحيا بها الأمم كما تحيا الأجسام بأجهزتها، فإذا اعتلت هذه المجموعات فإننا نرى ما لا يسر في مسالك الأمة العامة والخاصة، ومن الكذب في المواعيد وفي الأخبار وتحول الآداب إلى قشور، وأصبح المسلمون يتميزون بالعجز الإداري وبالفشل العسكري في ميادين الحروب،

وقد صرح قادة اليهود بأن المكاسب التي أحرزوها كانت هدية من الانحلال العربي وضعف الأخلاق.

إن العالم الإسلامي تظهر فيه الانتخابات المزورة ورد الخطاب لعدم وجود المال المطلوب، والكبر والجاه وينتشر الغش في الانتخابات والمباني والسلع.

لقد أوهى الاستعمار الإسلام واستبعد تأثيره في الحياة الخاصة والحياة العامة، ونتج عن ذلك انهيار خلقي محزن وانتشار العصبيات الوطنية والقومية.

إن القرآن الكريم هو أساس حياتنا وفيه جميع الحقائق التي كلف المرسلون بتبليغها وهو منذ الرسالة وإلى أن تقوم الساعة مجمع العقائد والشرائع التي تكفل للناس الهدى والاستقامة، وقد صانه الله تعالى من التحريف وتكفل بحفظه وسنة محمد، ما تواتر فيها واشتهر، وضع جدير بالثقة، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا حسد إلا في اثنتين رجل أتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" البخاري.

فالإسلام بريء من التهم المعلقة به وهي أنه يرغب في الفقر ولذلك يقول الله تعالى { لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} "الحديد 10".

وقد حدد القرآن الكريم رسالة الأمة الإسلامية بقوله تعالي: {وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } "آل عمران 104".

ولابد من أن تقدم الأمة من نفسها نموذجاً حياً وأسوة حسنة لما تدعو إليه، ولابد من أن تكون الأمة الإسلامية حارسة للشرف مترفعة عن الدنايا متواصية بالمرحمة منظور إليها محلياً وعالمياً، لأنها نصيرة المظلوم ومجيرة المستضعف، لأن الله تعالى قد أوحى إلى هذه الأمة فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والخشوع إلى الله تعالى – وهذه الأهداف نسيها الكثيرون من المسلمين ولم يكلفوا أنفسهم محو الشبهات التي أثيرت عمداً حول مقاصد الإسلام.

إن الخاصية الأولي للأمة الخاتمة أنها غيورة على الحقيقة ولا تسكت عن نصيحة ولا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكن إذا ما ابتليت هذه الأمة بسلطات تكمم الأفواه فماذا تكون النتيجة؟.

ومن الملاحظ أن الحكم الاستبدادي ظهر في شكل تنظيمات دستورية، والوظيفة الأولى لدولة الإسلام أن تري الأمم الأخرى آفاق الخير مشرقة في حياتها هي وفي أخلاقها وتقاليدها وعاداتها ومعاملاتها وآدابها وفنونها وأسواقها، إن الخلافة التركية بدأت بداية حسنة خدمت الإسلام ثم انتقلت إليهم علل الخلافة العربية، فضاعوا تحت الشعارات التي تعد محمداً بطلاً قومياً وزمام زحف الملل والفلسفات الأخرى التي خلا لها الجو تناست وظيفتها الأصلية.

إن من واجب الدولة الإسلامية ضبط العلاقات الجنسية داخل إطارها الصحيح، لأن النفاق الاجتماعي وتقاليد الآباء جعلا من عقد الزواج شيئاً صعب الظهور - ولابد من تجديد علوم الدين وتبصير طلابه بالحقائق الأساسية، ولابد من تجاوز الخلافات الجزئية والعناية بالتربية ومحو الخصومات القائمة حتى يتحقق لهذه الأمة القدرة على أداء وظيفتها والله سبحانه وتعالى وضح ذلك توضيحاً كاملاً في قوله تعالى { لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلا} "
النساء 123 : 125".

وعلى المسلمين أن يسيروا على هذا النهج حتي ينقذوا أنفسهم وينقذوا هذا العالم الحائر ولمثل هذه فليعمل العاملون.